قصص التلميذ



ملك النهر الذهبي

قصص التلميذ

ملك النهر الذهبي

عبد الفتاح عبد المقصود

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

دار مصر للطباعة
٢٠ شارع كامل صدقي الفجالة

١

قديما بإحدى المناطق الجبلية المنعزلة من بلاد « ستيريا » ، كان ثمة واد عجيب ، خصب التربة ، تحيط به من نواحيه جبال صخرية ، قائمة الحافة ، ذات قمم شاهقة الارتفاع ، تغطيها الثلوج طوال العام ، وتنصب من فوقها سيول من الماء ، تستحيل شلالات عظيمة ، دائمة الانحدار ... وكان من بين هذه المساقط المائية ، شلال يقع فى الجانب الغربى ، فوق صخرة شامخة لا تغيب عنه الشمس لفرط علوه فى أجواز الفضاء . فهى تغرب عن كل ما حوله ، وتغمر بظلمة غروبها المناطق الواقعة فى أسفله ، ولكنها لا تنى ترسل عليه أبدا من أشعتها ما يبديه للعيون الناظرة سيلا من ذهب خالص ، حتى لقد عرفه سكان البلاد المجاورة باسم النهر الذهبى .

والغريب فى أمر هذا الشلال أن مجاريه المائية لم تكن تسقط فى الوادى ، بل تنحدر جميعا على السفوح الأخرى من الجبال ، ثم تدور خلال سهول فسيحة نائية ، حتى تدنو من المدن المأهولة ... غير أن الغيوم كانت تقبل دائما صوب التلال المغشاة بالثلوج ، وتستقر فوق المنخفض المحصور بين الجبال ، فإذا حل فصل الجفاف ، واشتدت حرارة الجو ، وألهبت بقيظها أرجاء الإقليم ، هطلت الأمطار فى الوادى الصغير وحده دون غيره من الأنحاء ، فإذا بمحصوله كثير وفير ، وأعشابه نامية عالية ، وتفاحه ناضج قان ، وأعنابه زرقاء نضرة ، ونبيذه شهى لذيذ ، وشهده حلو معسول . وإذا الوادى ، بما ينتج ويغل ، معجزة تذهل العقول ، وتسحر الأنظار . وإذا الناس لا يجدون صفة تتفق وخيراته ينعتونه بها إلا أن يسموه : وادى الكنوز ...

هذا الوادى الصغير كان ملكا خالصا للإخوة الثلاثة : شوارتز ، وهانز ، وجلاك . وكان شوارتز وهانز — وهما الأخوان الكبيران — دميمى الخلقة ، مهدلى الحواجب كثيفيهما ، ضيقى العيون ، موارِبى

الجفون ، كليلي النظرات حتى ليعسر عليك أن تستشف ما يطويان وإن حسبتهما قديرين على استشفاف ما تطوى نفسك ! ..

وكانا يعيشان من زراعة وادى الكنوز ، فهما من أبرع المزارعين . وقد دأبا على قتل أى طائر أو حيوان يأكل مما ينتجان دون أن يعوضهما عن طعامه . فأرديا العصافير خشية أن تنقر الفاكهة . وقتلا القنافذ مخافة أن ترضع ألبان الأبقار . وسمما الصراصير لكيلا تأكل فتات الخبز المتخلفة بالمطبخ . وكتما أنفاس الجنادب التى ألفت الغناء صيفا بين أغصان شجر الزيزفون ... وكانا يرهقان الخدم بالعمل ولا يجزيانهم عنه أجرا حتى تخور قواهم ، وعندئذ يشاجرانهم ، ثم يطردانهم من الدار .

أفعجب إذن أن يثرى الأخوان بفضل هذا الأسلوب الشاذ الذى اتبعاه فى إدارة المزرعة ؟ .. بل قد أثريا ثراء فاحشا ، لا يخطر ببال . كانا يخزنان القمح ، فإذا غلا سعره ، باعاه بضعف ثمنه . وكان المال لديهما أكداسا كبيرة تغطى أرض الحجرات ، ومع ذلك فلم يعرف عنهما أبدا التصدق بقرش واحد ، ولا بكسرة خبز على فقير محتاج ، وما يمما الكنيسة للصلاة ، ولا أديا ما عليهما من ضرائب إلا كرها ... مجمل القول إنهما كانا قاسيين ، فظى الطباع ، حتى لقد لقبهما من عرفوهما باسم « الأخوين الأسودين » ..

* * *

أما الأخ الأصغر « جلاك » فعلى النقيض منهما تماما ، فى مظهره وفى خلقه ، على نحو لا يكاد يتخيله عقل أو يتصوره خيال ... كان دون الثانية عشرة من عمره ، وسيما ، أزرق العينين ، رقيق الطبع ، حبيبا إلى قلوب البشر وغيرهم من الأحياء ... وكان ، بلا ريب ، لا يقر أخويه على ما يفعلانه ويخالفهما فى الرأى أو هما اللذان كانا يخالفانه فى كل شيء . وكانا دائما « يشرفانه » بأن يعهدا إليه بصنع الشواء فى المرات النادرة التى

يطيب لهما فيها أن يطعما الشواء ، وقلما كانا يأكلانه ! .. فمن الإنصاف أن نذكر أنهما كانا يضيقان على نفسيهما تضيقهما على غيرهما سواء بسواء ! .. وكان عادة يمسح الأحذية ، وينظف أرض الحجرات ، ويغسل الأطباق بعد أن يلتهم ما فيها من بقايا الطعام مدفوعا إلى ذلك بجوعه وبلكزات أخويه وصفعاتهما تأديبا له ! ..

على مثل هذا النحو سارت الأمور زمنا طويلا ، حتى كان صيف شديد الرطوبة ساءت خلاله الأحوال بالإقليم حول ذلك الوادى الخصيب . فما كان ينمو البرسيم حتى جرف الفيضان أعواده الصغار قبل نضجها وألقى بها بين أمواج البحر . وما أوشكت الكروم أن تثمر حتى أتلفها سقوط البَرَدْ وحطمها تحطيما . وما سَنبَلَ القمح حتى أهلكته الآفات...

لكن وادى الكنوز سلم وحده ، كحاله دائما فى كل هذه النكبات . فقد أمطرته السماء وبخلت بمطرها على سواه . وأشرقت الشمس عليه وغابت عن كل ما عداه . وعندئذ أقبل الناس على المزرعة بالوادى يشترون من قمحها حاجتهم ، ثم عادوا منها وهم يصبون اللعنات على الأخوين الأسودين اللذين اقتضيا القادرين منهم أفدح الأسعار نظير ما اشتروه، وردا من لا يملكون ذلك الثمن من الفقراء والمحتاجين خائبين حتى أهلك الجوع أكثرهم فماتوا ببابهما دون أن يظفروا منهما بأدنى اهتمام..

واقترب فصل الشتاء ، واشتدت باقترابه برودة الجو شدة لم يكن لها من قبل مثيل ... وذات يوم ، غادر الأخوان الكبيران الدار ، وقد نبها — كمألوف العادة — أخاهما الصغير جلاك أن يجيد طهو الشواء ، وحذراه السماح لأحد من الناس بدخول الدار ، أو التصدق بشىء ، مهما قل ، على أى إنسان .. وكان المطر ينهمر وابلا ، والمطبخ باردا موحشا لا مجال للراحة ولا للطمأنينة فيه ، فجلس الغلام منطويا على نفسه بجوار النار يقلب عليها الشواء حتى اسمر لون اللحم ، ونضج ،

وفاحت منه رائحة شهية تسيل اللعاب ..

حينئذ حدث جلاك نفسه :

« يا للأسف ! .. إن أخوى لم يدعوا أحدا أبدا إلى الطعام ، ولكننى مع هذا موقن أنهما خليقان بأن يطيبا نفسا ، لو شاركهما إنسان آخر فى أكل هذه القطعة الشهية من الشواء ، فى وقت كهذا عزت فيه كسرة الخبز على غيرهما من الناس .. » .

فما كادت تنتهى مناجاته حتى دق الباب دقات عنيفة مكتومة كأنما كان الطارق مكتوف اليدين مقيد الحركات ، دقات أشبه بعصف الرياح منها بالطرقات ...

قال جلاك :

« لا بد أنها الريح . فما من أحد غيرها يجسر على معاودة طرق بابنا مرات ومرات .. » .

لكنها لم تكن الريح . فقد تكرر الطرق متلاحقا عنيفا يثير الحيرة كأنما الطارق فى عجلة من أمره ولا يأبه فتيلا بما قد تجره عليه طرقاته . ومضى جلاك إلى النافذة يفتحها ، ويطل منها ليرى القادم ..

ورآه ، فإذا هو أعجب إنسان مظهرا وقعت عليه فى حياته عيناه . إنه امرؤ له أنف مفرط الطول ، أدنى إلى النحاس ، تمتد أرنبته حتى تشبه عند طرفها فم النفير ! .. وكان خداه مستديرين كنصفى كرة ، فيهما حمرة قانية ، تكاد توحى إلى الأذهان بأن صاحبهما قضى يومين متواليين وهو ينفخ فى نار خامدة ! .. فأما عيناه فقد تألقتا مرحا من وراء أهدابه الناعمة الوطفاء . وأما شارباه فالتويا التواءات دائرية كاللوالب ، وانعقصا على جانبى شفتيه . وأما شعره فكان خليطا عجيبا من لونى الملح والفلفل ، وقد تهدل على كتفيه وجاوزهما حتى قارب خصره .. وكان قصيرا ، تبلغ قامته نحو أربع أقدام ونصف قدم ، ومثلها بلغ ارتفاع قلنسوته ، المخروطية

الشكل كالطرطور ، المحلاة بريشة سوداء طولها قرابة ثلاث أقدام . وعلى جسده ارتدى صدارا امتد له من خلفه ذيل طويل على هيئة ذيل عصفور الجنة ، من فوقه عباءة فضفاضة لامعة ، خليقة — لفرط طولها — أن تنبسط على الأرض وزاءه فتغطى منها رقعة كبيرة إبان ركود الهواء . فأما والرياح حينذاك عاصفة ، تصفر فى الفضاء المحيط بالدار ، فقد لعبت بتلك العباءة ، وأطارتها ترفرف عالية وهى مشدودة إلى كتفيه ، وتبلغ بطولها أربعة أضعاف ارتفاع قامته ! ..

ذهل جلاك عن نفسه لمرأى زائره ، ولغرابة ما بدا له من مظهره غرابة مقطوعة النظير . وظل ساكنا حيث هو ، لا يتحرك ، ولا تنبس له شفتان .. وعاود السيد العجوز دق الباب دقات لها ضجيج وجلبة ، ثم رفع ناظريه إلى العباءة التى أطارها الهواء ، وعندئذ وقع بصره فى النافذة على رأس جلاك ، بشعره الأصفر ، وفمه المفغور ، وعينيه المحملقتين من دهشته .. فهتف يقول :

« هالو ! .. ما هذه طريقة الاستجابة لطارق . افتح لى ، ودعنى أدخل ، فقد بلنى المطر .. » .

وكان العجوز حقا مبتلا من رأسه إلى قدميه . فريشة قلنسوته مدلاة بين رجليه كذيل كلب ذليل ، يقطر الماء منها كأنها مظلة ! .. وشارباه المفتولان يتساقط الماء من طرفيهما على صداره ، ويجرى فوقه إلى جيوبه فتمتلئ به ثم تنسكب انسكاب المياه من قواديس ساقية ! ..

قال جلاك :

« غفوا يا سيدى . لكم أنا آسف لأننى فى الحقيقة لا أستطيع .. » .

فسأله العجوز :

« لا تستطيع ماذا ؟ .. » .

« لا أستطيع أن أدعك تدخل الدار — قطعا لست أستطيع ، فلسوف

يضربنى أخواى ضربا مبرحا قد يفضى بى إلى الموت لو أننى فكرت فى إتيان شىء من هذا القبيل .. ولكن ، ما الذى تريده يا سيدى ؟ .. » .

قال العجوز فى حدة :

« ما الذى أريده ؟ .. أريد نارا ومأوى . وها هى نارك تتلظى وتتأجج ، وتتراقص ألسنة لهبها على الجدران وليس من أحد يفيد منها ! .. قلت لك : دعنى أدخل ! .. فما أريد إلا الدفء .. » .

كان جلاك إذ ذاك مطلا من النافذة ، ورأسه للجو مكشوف ، فأحس حقا شدة البرد . فلما أدار وجهه إلى الحجرة ، ورأى بها النار تشتعل وتئز ، وتتصاعد ألسنتها المتألقة الطويلة من خلال مدخنة الموقد كأنما تلعق شدقيها بعد تذوقها الشواء الشهى ، أحس بقلبه فى جوفه يذوب حسرة على تبدد دفئها اللذيذ عبثا دون أن ينعم به إنسان ..

وعندئذ حدث الفتى نفسه :

« إنه ليبدو غارقا حقا فى البلل ، فلأدعه إذن يدخل ، ويمكث ربع ساعة .. » .

واستدار إلى الباب . فما فتحه للعجوز حتى نفذت من خلاله هبة عاصفة من هبات الريح تقتحم المنزل وتزلزل المدخنة القديمة .

وقال العجوز :

« هذا فتى كريم الخلق — لا حرج عليك من أخويك فلى معهما حديث .. » .

فرد الغلام :

« أستحلفك بالله يا سيدى ألا تحدثهما بشىء . فما فى وسعى إبقاؤك حتى ساعة رجوعهما وإلا قتلانى ! .. » .

قال العجوز :

« عجبا ! .. يؤسفنى أن أسمع منك ما تقول . ومع ذلك ، فكم من

الوقت الذى أستطيع مكثه هنا ؟ .. » .

فأجابه جلاك :

« حتى يتم نضج الشواء ، وها أنت تراه يا سيدى قد اسمر لونه .. » .

* * *

دخل العجوز المطبخ يقتعد درج الموقد . وقد نفذت ريشة قلنسوته صاعدة من خلال المدخنة إذ كان سقف الحجرة أوطأ من أن يسع ارتفاعها ! ...

وقال جلاك وهو يعاود جلسته لطهو الشواء :

« لن تلبث ثيابك أن تجف يا سيدى .. » .

غير أنها لم تجف . فقد راحت تقطر وتقطر فوق جمرات النار قطرات من الماء متلاحقة كبا لها لون النيران واسود ، وكاد يخمد لهيبها .. فيالها من عباءة ! .. لكأن كل طية من طياتها قناة جارية ! ..

إذ ذاك قال جلاك ، وقد شهد الماء يجرى قنوات طويلة فضية اللون فوق أرض الحجرة وما انقضى بعد ربع الساعة :

« معذرة يا سيدى ، ألا تسمح لى برفع عباءتك عنك ؟ .. » .

قال العجوز :

« كلا ، وشكرا .. » .

« قلنسوتك إذن ، يا سيدى ؟ .. » .

فرد العجوز عابسا :

« إنى بخير ، فشكرا لك ! .. » .

قال جلاك فى تردد :

« لكن يا سيدى — إنى آسف . إنما — أعنى — أن أقول إنك — تطفئ النار .. » .

فكان أن أجابه زائره بجفاء :

« وبهذا سيطول الوقت الذى يكفى لينضج الشواء . » .

وحار جلاك حيرة بالغة لسلوك ضيفه ، فهو مزيج عجيب من البرود والتواضع . وتلفت يرقب السيخ خمس دقائق أخرى وهو يتفكر ولا يلقى بعينه على الزائر ، حتى سمعه بعدها يخاطبه :

« لكم تشتهى النفس هذا اللحم الآن ! .. ألا تعطينى منه قطعة صغيرة ؟ .. » .

قال جلاك :

« مستحيل يا سيدى ! .. » .

فمضى الشيخ فى حديثه :

« ولكننى جوعان . فلم أذق طعاما أمس ، ولا اليوم . وما أحسب أخويك سينقصهما شىء لو أعطيتنى قطعة صغيرة .. » .

كان يتحدث باكتئاب وحزن انفطر لهما قلب الفتى أسى ، فأجاب :

« لقد وعدانى شريحة منها يا سيدى تستطيع أن تأخذها — هى ولا زيادة ! .. » .

فعاود العجوز قولته :

« هذا فتى كريم الخلق .. » .

وجاء الفتى بصحفة ، وشحذ سكينا ، ثم خاطب نفسه قائلا :

« ما أبالى الآن لو ضربانى ! .. » .

وما كاد يقتطع من الشواء شريحة كبيرة حتى دق الباب دقا عنيفا ، وثب له الشيخ عن مجلسه فوق درج الموقد كأنما قد استكمل فجأة دفئه .. وأسرع جلاك يعيد الشريحة إلى مكانها من قطعة اللحم ، ويحاول إلصاقها لتبدو كأنما لم تمتد نحوها سكين ، ثم عدا ليفتح الباب .

وصاح به شوارتز ، وهو ينفذ إلى الداخل ، ويلقى بمظلته فى وجهه :

« لم أمهلتنا هكذا بالباب تحت وابل المطر ؟ .. » .

وزمجر هانز وهو يصفع الفتى صفعة شديدة ، ثم يتبع أخاه الآخر :

« آه — لماذا أبطأت أيها الصعلوك الصغير ؟ .. » .

وهتف شوارتز مبهوتا عندما فتح الباب :

« ارحمني يا إلٰهى !.. » .

فأجابه العجوز ساخرا ، وقد نزع قلنسوته عن رأسه ، ونهض وسط المطبخ ، يحنى رأسه إحناءة سريعة :

« آمين ! .. » .

قال شوارتز يسأل جلاك .

« من هذا ؟ .. » .

ثم اختطف قضيبا من حديد ، واتجه ، عابسا ، إلى حيث وقف الفتى .

فرد جلاك فى ذعر هائل :

« لا أعرف يا أخى .. » .

فزأر شوارتز :

« وكيف دخل ؟ .. » .

قال جلاك يسترحمه :

« لقد كان ، يا أخي العزيز ، مبتلا يقطر الماء من ثيابه .. » .

وفى اللحظة التى تحركت فيها يد شوارتز تهم أن تنقض بالقضيب الحديدى فوق رأس الغلام مد العجوز قلنسوته . وإذا هى تتلقى الضربة . وإذا الماء ينسكب منها فيغمر كل أرجاء الغرفة .. وأعجب من هذا كله أن القضيب لم يكد يلمس القلنسوة حتى طار من كف شوارتز ، وراح يطفو فى فضاء الغرفة كما تسبح ريشة فى مهب الريح ، ثم سقط فى أقصى الحجرة .

والتفت شوارتز إلى العجوز متسائلا :

« من أنت يا سيدى ؟ .. » .

وزمجر هانز كذلك :

« وماذا تريد ؟ .. » .

فأجاب الرجل فى هوان :

« ما أنا إلا عجوز يا سيدى ، رأيت ناركما من خلال النافذة ، فجئت ألتمس مأوى لربع ساعة .. » .

قال شوارتز :

« خير لك إذن أن تخرج ، فيكفينا ما بمطبخنا من ماء ، ولسنا نريده مكانا لتجفيف ثيابك .. » .

« إن البرد يا سيدى قارس ، لا يحتمله عجوز مثلى .. ألا ترى شيبى ؟ .. » .

فأمسك الأخوان بتلابيبه ، وقال هانز :

« التمس من الناس من يجفف ثيابك سوانا — هيا امض ! .. » .

« لكننى أكاد أموت جوعا يا سيدى . فهلا أعطيتنى كسرة خبز ، ثم أرحل ؟ » .

قال شوارتز :

« خبز ! .. أتظننا لا نصنع خبزنا إلا لنعطيه شخصا مثلك محتقن الأنف ! .. »

وتلاه هانز قائلا :

« ولم لا تبيع ريشتك هذه ؟ .. هيا اخرج ! .. » .

قال العجوز :

« كسرة صغيرة .. » .

ورد شوارتز :

« اخرج ! .. » .

فعاود العجوز توسله :

« أرجوكما ، أيها السيدان .. » .

وعندئذ صاح به هانز مستهزئا :

« اخرج ، ومت بعيدا عنا ! .. » .

وجذبه من بنيقة ثوبه . فما فعل حتى وجد نفسه قد طار مثلما طار قبله قضيب الحديد ، سابحا فى فضاء الغرفة ، يدور ويدور ، ثم هوى فى ركنها البعيد ، بجانب القضيب .

عندئذ اشتعل شوارتز غضبا ، وأسرع إلى العجوز يدفعه ليخرج . ولكنه لقى ما لقيه أخوه ، وراح مثله ينقلب وينقلب فى فضاء حجرة المطبخ حتى هوى أخيرا بركنها القصى إلى جوار سابقيه ! ..

* * *

دار العجوز بعد هذا حول نفسه دورات سريعة متلاحقة ، وظل يدور ويدور كالنحلة حتى لف عباءته بجسمه فأحكم لفها . ثم وضع قلنسوته على رأسه مائلة لئلا تخرق السقف لطولها وتنفذ من خلاله . فلما اكتملت أناقته ، مد أصابعه ففتل شاربيه ، ثم قال للأخوين بلهجة فاترة :

« أصبحا بخير أيها السيدان .. واعلما أننى معاود زيارتكما هذا المساء عند منتصف الليل . فأما وقد خبرت ضيافتكما ، وعرفت أنكما لا ترحبان بى ، فلا تعجبا أن تكون زيارتى القادمة هى آخر زيارة .. » .

فتمتم شوارتز متوعدا ، وهو يدلف من ركنه مرتعد الأوصال :

« لو أمسكت بك هنا ثانية ، فسوف — » .

لكن العجوز كان قد خرج ، قبل أن يكمل الشاب جملته ، وأغلق الباب خلفه فى دوى مزعج . وما كاد يمر بهيكله القصير إلى جوار النافذة ، خارج الدار ، حتى لاحت فى الأفق غمامة مبهمة ، راحت تظلل أجواء الوادى ، وتضطرب فوقه بين ذهاب وجيئة ، وعلو وهبوط ، ثم استحالت وابلا من المطر كالطوفان ..

وقال شوارتز لأخيه الصغير فى نبرة حقد وحنق :

« عال ، عال يا سيد جلاك ! .. ضع اللحم فى الصحفة فورا ، وقدمه .. ولئن حدث مرة أخرى أن ضبطتك تخدعنى — ولكن ،

ويحك ! .. أراك اقتطعت من الشواء .. » .

قال جلاك :

« ألم تعدنى ، يا أخى ، شريحة منه ؟ .. » .

« حقا! .. ولذلك قطعتها ساخنة ، ومنيت نفسك إلى جوارها بالمرق! .. لا أيها الغلام لن أبيحك أية شريحة إلا بعد زمن طويل، فاغرب عن وجهى فورا ، وغادر الغرفة إلى مخزن الفحم حتى أدعوك .. ».

فخلف جلاك الغرفة والحزن يعتصر فؤاده . وجلس أخواه إلى الشواء يلتهمانه حتى أتيا على أكثره، وأودعا بقيته صوان الطعام ، ثم خلوا إلى الشراب ..

وكانت ليلة ليلاء ! .. فالرياح تعوى وتعوى . والمطر ينهمر ويهطل ، لم تكف السماء لحظة واحدة عن إرساله ، ولا خففت من شدة تهطاله . وعلى كثرة ما عبه الأخوان من الخمر ، فقد بقيت لهما بقية إدراك دفعتهما إلى أحكام إغلاق النوافذ والأبواب ، وتتريسها بالمزاليج ، ثم أويا كعادتهما إلى فراشهما ، فناما معا فيه ..

ودقت الساعة اثنتي عشرة دقة تعلن انتصاف الليل . وعندئذ دوى صوت قرقعة ، انفتح على أثرها الباب على مصراعيه ، وزلزل البيت كله زلزالا شديدا ، فانتفضا فى مرقدهما جالسين ..

وهتف شوارتز دهشا :

« ما هذا ؟ .. » .

فما أجابه غير صوت العجوز :

« لا أحد سواى ! .. » .

وحملق الأخوان فى الظلام المخيم حولهما مذعورين . المكان كله مغمور بالماء وفى شعاع باهت من ضياء القمر نفذ من ثغرة بالنافذة ، تبينا ، فى وسط الغرفة ، موجة عاتية من زبد أبيض ، كأنها الكرة الضخمة ، تدور

حول نفسها وتدور ، وتطفو على سطح الماء كقطعة من الفلين ، ومن فوقها وسادة فاخرة ، قد اقتعدها العجوز وهو فى كامل أناقته من عباءة وقلنسوة وريشة ، وليس ثمة ما يعوق جلسته ، ولا علو ريشته ، إذ كان سقف الحجرة قد طار مع الريح ! ..

وقال الزائر ساخرا :

« آسف لإزعاجكما ! .. وأخشى أن يؤذيكما بلل الفراش ولذلك أنصح لكما باللجوء إلى غرفة أخيكما الصغير ، إذ أبقيت سقفها عليها ! .. » .

ولم يتريثا ليسمعا غير هذا منه ، بل انطلقا مسرعين ، فى فزع ورعب ، ييممان شطر غرفة جلاك ، وهما ينتفضان من الخوف والبلل ..

ولحق بهما كلام العجوز :

« ستجدان بطاقتى فوق مائدة المطبخ ، ولا تنسيا أن هذه آخر زياراتى .. » .

وهتف شوارتز وهو يرتعد :

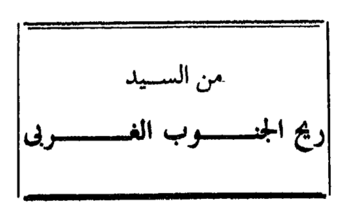
« بالله ليتها الأخيرة ! .. » .

فسرعان ما اختفى الزبد ، والوسادة والعجوز القصير ..

وعندما تنفس الفجر ، أطل الأخوان من نافذة جلاك ، يلقيان بالنظرة على ما وراءها . فما راعهما إلا وادى الكنوز وقد أصبح قاعا صفصفا ، ينشر الخراب عليه جناحيه ، ويملأ المحل كل جنباته . فلقد اكتسح الطوفان كل ما فيه من شجر وزرع وماشية ، ولم يدعه سوى فضاء من رمال حمراء ، وطينة شهباء ..

وجر الأخوان أرجلهما ، يدرجان إلى المطبخ ، وقد صعقهما الرعب ، وتملكتهما رعدة شديدة . فإذا بالماء قد جرف معه كل ما كان بالطبقة السفلى من الدار ، من قمح ومال وأدوات مختلفة ، إلا مائدة المطبخ ، وتلك البطاقة التى تركها لهما العجوز .. ومدا إليها الأيدى . ثم

حملقا فيها ، فما هالهما منها إلا حروف كبيرة طويلة متعرجة كأنما تعبث بها الرياح ، ترسم هذه الكلمات :



٢

وفى « السيد ريح الجنوب الغربى » بوعده . فلم يعد قط لزيارة وادى الكنوز ثانية .. وأسوأ من هذا أنه كان مسموع الكلمة لدى أقاربه الرياح الغربية جميعها ، فتأثروا به ، ونسجوا على منواله ..

وإذن ، فقد احتجب المطر عاما كاملا عن ذلك الوادى ، لم تسقط به منه قطرة ، فبقى صحراء قاحلة ، بينما نضر ما عداه من السهول وأينع بها الزرع .. وضاق الأخوان ذرعا بتلك السماء الغاضبة ، فهجرا أرضهما قانطين ، ومضيا ينشدان العيش فى السهول بين ظهرانى سكانها .. كانا قد فقدا من المال ما يملكان إلا بضعة من صحاف قديمة من الذهب هى بقية عزهما الغابر ..

وقال شوارتز يخاطب أخاه هانز وهما يدخلان إحدى المدائن .

« ماذا لو عملنا صائغين ؟ .. إن الصياغة مهنة المكرة الدهاة ، ونستطيع أن نخلط الذهب بقدر كبير من النحاس دون أن يكشف خدعتنا هذه أحد من الناس .. » .

وقر رأيهما على ذلك ، فاستأجرا كورا وبدآ عملهما كصائغين .. لكن تجارتهما ما لبثت أن كسدت بسبب حادثين طفيفين ، أولهما إحجام الناس عن شراء ذهبهما المغشوش ، وثانيهما انكبابهما على شرب الخمر كلما حصلا على مال ثمنا لما قد يبيعانه ، تاركين كورهما لأخيهما الصغير جلاك .

بهذا نفد ذهبهما المستخلص من الصحاف ، وأعوزهما شراء سواه . ولم يبق لديهما غير كأس كبيرة كانت هدية أهداها إلى جلاك أحد أخواله ، فحرص الفتى عليها كل الحرص ، لا يفرط فيها ، ولا يرتضى عنها بديلا وإن كان ذلك البديل ملك دنياه ! .. وظل مولعا باقتنائها ، وبقائها فى حوزته ، لا يشرب فيها سوى اللبن أو الماء القراح ..

كانت الكأس غريبة الشكل ، لها مقبض من الذهب على هيئة جديلتين من الشعر يخالهما الرائى مجدولتين من خيوط الحرير لا مصنوعتين من معدن جامد . وقد تدلت هاتان الجديلتان فاتصلتا بما يشبه اللحية وشعر الفودين فى مهارة ودقة صنع ، تحيط كلها بوجه قاسى الملامح ، صيغ من ذهب أحمر تألفت منه مقدمة الكأس ، وقد التمعت فيه عينان ثاقبتان لهما نظرة حادة مسيطرة ! .. ولم يكن يسع إنسانا يشرب منها أن يفلت من نظراتهما الصارمة التى تلوح كأنما تنفذ إليه أينما أدارهما بعيدا عن بصره ، حتى لقد أحصى شوارتز — فى مرة واحدة احتسى منها شرابا — عدد مرات تحديقها إليه فوجدها سبع عشرة ! ..

* * *

حل إذن دور الكأس فصهرها الأخوان ، وصنعاها ملاعق ، غير آبهين بحزن جلاك ، ولا معيراه إلا ضحكة ساخرة وهما يلقيان بها إلى البوتقة فى نار الكور . ثم انطلقا من بعد إلى المشرب يحتسيان الخمر ، وتركاه كعادتهما يتعهد ذوب الذهب ، ويصوغه سبيكة أو قضبانا حين يتم انصهاره ..

وخرجا . وألقى جلاك بنظرة وداع على كأسه الحبيبة وجديلتاها تسيحان، ووجهها تنطمس معالمه فلا يبقى منه واضحا غير أنفه الأحمر وعينيه المتألقتين وقد تلهبتا بحقد غامر لم تتكشف عن مثله نظراتهما من قبل ..

وقال الفتى يحدث نفسه :

« لا عجب أن تشتعلا حقدا وغضبا وهما تلقيان هذا المصير ! .. » .

ومضى الفتى مكتئبا يسير الهوينى إلى النافذة ليستنشق نسيم المساء العليل ، وينأى بنفسه عن أنفاس الكور اللافحة .. كانت النافذة تكشف له عن منظر سلسلة الجبال الشاهقة التى تشرف على وادى الكنوز ، وبخاصة ذلك الجبل الذى ينحدر من قمته النهر الذهبى ..

وكان النهار يوشك على المغيب . فلما اقتعد جلاك مجلسه إلى جوار النافذة، شهد صخور القمم وقد صبغها الغروب بلون الأرجوان . وانتشرت فوقها ألسنة مؤتلقة من سحب لاحت كأنها تتلهب وتشتعل وهى تضطرب فى مهب الهواء . أما النهر فقد بزها جميعها لألاء وأمواجه الدافقة بتنتظمها مياهه فى خطوط من ذهب خالص ، تسيل من وهدة لوهدة، وقد انحنى عبرها قوس قزح ، عريضا قانى الحمرة ، متوهجا هنا، خابيا هناك ، فى سلسلة تعاقبت حلقاتها لامعة كابية ، كأنها غصن مجدول ..

وهتف جلاك معجبا بعد أن ملأ هنيهة بهذا المشهد ناظريه :

« يا لله ! .. ما كان أروع النهر لو كان حقـــــــا من ذهب خالص ! .. » .

وعندئذ سمع صوتا ، له صليل معدنى ، يهمس فى أذنه :

« كلا ، فما ينبغى هذا ، يا جلاك » .

فريع الفتى ، وانتفض يثب ، ويقول :

« رباه !.. ما هذا ؟.. » .

لم يكن ثمة إنسان غيره ..

لكنه مضى يفتش الغرفة، وما تحت المائدة، وما خلفه هو مرات ومرات. فلما تحقق من خلو المكان، عاد ثانية إلى مجلسه بجانب النافذة..

ولاذ بالصمت. غير أن ذهنه ما لبث أن عاود التفكير فى النهر، وفى روعته لو أنه استحال ذهبا خالصا. فإذا الصوت يأتيه مرة أخرى، أعلى جرسا :

« محال يا بنى !.. » .

فريع ثانية وقال :

« رباه !.. ما هذا ؟ .. » .

وعاد يفتش كل أرجاء الغرفة، وداخل صوانها، ثم راح يدور متلفتا حوله دورات سريعة فى وسط الحجرة وقد ظهر أن إنسانا يختبئ وراءه. وإذا الصوت يصلك سمعه ثانية مترنما بنغمة مرحة تتردد على حركة دورانه :

« لا لا — لى لى — لا ! .. » .

ولم يقترن بهذه النغمة كلمة، بل ظلت وحدها تنساب لحنا ناعما حنونا كأنه حسيس قدر أخذت تغلى على النار ! .. وأطل جلاك من النافذة لعل ذلك الصوت يأتيه من خارجها فإذا هو عندئذ يوقن أنه إنما يجيئه من داخل الدار، لا من الطبقة العليا، ولا من السرداب، بل من نفس هذه الغرفة التى هو بها الآن. منها بغير شك ينبعث ناعما خفيضا، ثم يعلو ويعلو بين لحظة ولحظة، ثم تبين نبراته وتتميز وهى تعاود الترديد :

« لا لا — لى لى — لا !.. » .

* * *

وعلى الأثر خطر للفتى أن مبعث اللحن كان ذلك الكور، فانطلق إليه يفتحه، ويتفرس فيه، ويرهف سمعه له. فما عتم أن أيقن بصدق حدسه وهو يتبين أن بوتقة الذهب هى التى كانت ترسل ذلك الحسيس المنغم .. وكم أفزعه الأمر، ودفعه إلى الفرار مبتعدا عنها، ينأى بنفسه من الحجرة بركن قصى، وقد رفع يديه، وفغر فاه لحظات !..

وسكن النغم وأخذ الحسيس العجيب ينتظم كلاما معبرا مسموعا ، يخاطبه :

« هالو ! .. » .

فلم ينبس الفتى بكلمة .

وعادت البوتقة تناديه :

« هالو ! .. جلاك يا ولدى .. » .

وتمالك جأشه . ثم مضى إلى الكور يخرج البوتقة منه ، ويمعن فيها نظره . كانت تحتوى على الذهب المصهور سائلا ، قد التمعت صفحته ، وتلألأت كأنها نهر . لكنها لم تعكس على صقالها خيال وجهه شأن غيرها من السوائل الشفافة ، بل بدا فيها من وراء صقال ذهبها ذلك الأنف القانى ، وتانك العينان الثاقبتان ، أنف كأسه وعيناها ، وقد زاد حمرة وزادتا قسوة وحدة كما لم يشهدها قط من قبل .

وناداه الصوت :

« جلاك !.. تعال يا ولدى . إننى بخير ، فصبنى من البوتقة .. » .

لكن الفتى ، لفرط عجبه ، ظل واقفا بلا حراك .

وصاح به الصوت فى غلظة :

« قلت : صبنى ! .. » .

فلم تزده الصيحة إلا تشبثا بموقفه .

حينئذ أهاب به الصوت يسترحمه :

« هلا صببتنى بربك ؟ .. إنى أكاد أحترق .. » .

هنا جهد جلاك حتى استطاع أن ينفض الروع عن نفسه ، ويحرك أعضاء بدنه ، ويمسك بالبوتقة ليصب ما فيها من ذهب مصهور . لكنه ، إذ فعل ، لم يشهد سائلا يندفق ، بل رجلين صغيرتين ، فى صفرة المعدن الثمين ، تتدليان منها ، يتبعهما ذيل ثوب ، فذراعان منثنيان ، فذلك الوجه المألوف لكأسه الحبيبة . وما لبثت هذه الأجزاء جميعا ، حين

تدحرجت على الأرض ، أن التأمت شكلا واحدا ، يمثل قزما من الذهب ، طول قامته قدم ونصف قدم ، وثب واقفا فى وسط الغرفة ! ..

وقال القزم :

« هذا بديع ! .. » .

وراح يتمطى . فمد رجليه وذراعيه . وحرك رأسه من جانب لجانب ، ومن وراء لأمام ، خمس دقائق كاملة دون كلل .. لكأنما كان إذ ذاك يستوثق لأعضاء جسده أقد أحكم وضعها حيثما يجب أن تكون ! ..

أما جلاك فقد وقف يتأمله مبهوتا والدهشة تعقد لسانه .. فهو فى صدار نسجه شرائط ذهب رقيقة ، تنعكس عليه الأضواء فيتلون ألوانا كما تتلون أشعة درة كريمة ! .. وفوق صداره انسدل شعر رأسه ولحيته إلى ركبتيه خصلات جعدة ناعمة حسب جلاك لفرط رقتها أنها تذوب فى الهواء ! .. ومع هذا فقد بدت ملامح وجهه جافة ، كأنما لم تدق صياغتها على نحو ما صيغت بقية أعضائه . فقسماته غليظة جهمة . وبشرته تضرب إلى لون النحاس ، كأنما توحى بما تنطوى عليه نفس صاحبها من العناد وشدة المراس ..

وفرغ القزم من تفحص جسده فاستدار يحملق لحظات فى جلاك ، ثم قال :

« جلاك يا ولدى .. كلا ، فما ينبغى هذا » .

كان قولا بلا مقدمة تفسره ، وأسلوبا عجبا يستهل به حديث .. ولقد يكون جوابا على أمنية الفتى حين جال بخاطره منذ قليل استحالة النهر صبيا من ذهب خالص . ولقد يكون ترديدا لذلك الصوت الذى انبعث من البوتقة . ولقد يكون غير هذا وذاك من ألوان الردود والأحاديث — ولكنه كان ، على أية حال ، نحوا من الكلام عصيا على فهم الغلام إدراكه فقال فى رقة واستسلام :

« ما هذا الذى لا ينبغى ، يا سيدى .. » .

فعاود القزم قوله ، بلهجة حاسمة :

« كلا ، كلا .. لا ينبغى هذا ! .. »

ثم شد قلنسوته فوق رأسه حتى أوشكت أن تغطى حاجبيه ، ودار دورة ، فأخرى ، قطع بهما نحو ثلاثة أقدام من مساحة الحجرة ، يرفع رجليه عاليتين وهو يسير ، ثم يخفضهما خفضا عنيفا تصكان الأرض ..

وكأنما أتاحت حركاته تلك للفتى فرصة يستجمع خلالها شوارد أفكاره ، وينفض عن نفسه الخوف الذى تملكه عند رؤية زائره الصغير . فتبدد ذهوله ، وتولاه على أثره تشوف وتشوق لتعرف حقيقة الأمر ، فاجترأ ، وهو متردد ، على مواجهة القزم بهذا السؤال الدقيق :

« أخبرنى يا سيدى ، بالله ، أأنت كأسى ؟ . » .

فما نطق كلماته حتى تلفت الرجل الصغير بغتة ، ثم مضى إلى جلاك ، شامخا بأنفه ...

وقال للغلام :

« بل ... أنا ملك النهر الذهبى ! .. » .

وانفلت يدور دورتين ، كفعله من قبل ، قطع بهما من أرض الغرفة نحو ست أقدام ، رام إبانها أن يتيح لسامعه نفض الذهول ، الذى تولاه بعد إعلان قدره له . فلما خفت دهشة الفتى ، انطلق القزم يقف صامتا أمامه ، كأنما ينتظر رأيه فيما أعلن ...

وقر عزم جلاك على أن يحدثه ، وليكن من بعد ما يكون ! .. قال له :

« يا صاحب الجلالة .. أتمنى أن تكون فى خير حال .. » .

فتجاهل الرجل الصغير أمنية الفتى ، وصاح به ،

« أصغ إلى ! .. إننى ملك ما يطلق الناس عليه اسم النهر الذهبى . أما هيئتى التى عرفتها ، فما كانت بهيئتى الحقيقية ، بل سحرنى فيها ملك حاقد قوى حتى خلصتنى الآن أنت من سحره ، ولقد خبرت من

خلقك ، ومن سلوكك حيال أخويك الشقيين ، ما يدفعني طائعا إلى التوفر على خدمتك ، وهاأنذا أكشف لك عن سر خطير : أن أى إنسان يصعد إلى تلك القمة التى ينبع منها النهر الذهبى ، ثم يقطر هناك بمجراه ثلاث قطرات من الماء المقدس ، لن يلبث أن يرى النهر يستحيل له ، وله وحده دون غيره ، ذهبا خالصا ! .. لكن أعلم يا بنى أنه من يفشل فى القيام بهذه المهمة مرة ، لن ينجح فيها أبدا من بعد ، مهما حاول وبذل من جهود ، فأما من يقطر فى النهر قطرات من ماء غير مقدس ، فسوف يغمره المجرى ويحيله تمثالا من الحجر الأسود ! .. » .

وما أتم ملك النهر الذهبى هذه الكلمات ، حتى استدار يمضى فى عزم إلى جوف اللهب فى الكور . وإن هى إلا لحظة حتى تبدلت هيئته ، فغدا أطيافا من ألوان حمراء وبيضاء شفافة ، فوهجا يخطف الأبصار ، فشعلة من ضياء وردى تراقصت ألسنتها هنيهة ثم اختفت عن مرأى الأعين ... لقد تبخر ملك النهر الذهبى وذاب فى الهواء ! ..

وصاح جلاك المسكين ، مروعا وهو يتبعه بنظراته من خلال المدخنة: « أوه ! .. رباه ! .. يا ويحى ! .. كأسى ! كأسى ! » .

٣

ما كاد ملك النهر الذهبى يغادر المكان على تلك الصورة العجيبة ، حتى اندفع هانز وشوارتز يدخلان الدار مخمورين فى جلبة وضوضاء .. وذهبت السكرة ...

لقد أعادهما ضياع سبيكة الذهب ، التى كانت كأسا إلى وعيهما فوزا ، فانكبا على أخيهما الأصغر جلاك يضربانه ضربا مبرحا بلا هوادة . فلما كلت أيديهما ، انحطا فى مقعدين وراحا يستفسرانه ما وقع .

وأخبرهما جلاك الخبر فلم يصدقاه . وعاودا ثانية ضربه حتى وهنت

منهما القوى ، وانطرحا خائرين فوق الفراش .

وأقبل الصباح ، فإذا الفتى أقوى إيمانا بصدق قصته ، أشد إصرارا عليها حين عاود أخواه سؤاله ، حتى لقد أخذ الطمع يراودهما ، ثم اختلفا فيما بينهما وكل منهما يريد أن يسبق أخاه إلى تحقيق تلك المعجزة التى كشف عن سرها القزم الصغير .. وكان لا بد أن يختلفا ، ثم كان لا بد أن يشتجرا ، فيجردا سيفيهما وتقع بينهما مبارزة عنيفة ، أقبل على ضجيجها الجيران يحاولون الإصلاح بينهما . حتى إذا رفضا الصلح ، وخشى القوم مغبة هذا الصراع الدامى ، وأرسلوا فى طلب الشرطة ، ركن هانز إلى الفرار ..

وجىء بشوارتز أمام الضابط . وحوكم ، فقضى عليه بغرامة مالية يدفعها جزاء وفاقا على تعكيره صفو الأمن . لكنه كان خالى الوفاض ، لا يملك شيئا بعد أن أنفق آخر مليم معه فى احتساء الشراب ، فدفع به إلى السجن حتى يؤدى ما عليه ..

فرح هانز لما وقع لأخيه ، واعتزم الرحيل إلى النهر الذهبى ليشبع جشعه . وتفكر فى الماء المقدس ، الكفيل بتحقيق مأربه ، وأمعن الفكر ، فلم ير بدا من اللجوء إلى كاهن البلدة يلتمس عنده منه قطرات .. لكنه ما لبث أن أحجم عن تنفيذ فكرته هذه وإنه لعليم أن الكاهن سوف يضن ، لا ريب ، على امرئ مثله سيئ الخلق بما يشتهيه ..

وإذن ، فلم يجد سوى اصطناع حيلة تبلغه مبتغاه ... فانطلق فى المساء إلى الكنيسة ، يدلف إلى المذبح ، ويتظاهر بالتعبد وتأدية الصلاة . حتى إذا أمن الأعين ، تسلل خفية ، فسرق قدحا من الماء المقدس ، وعاد لداره تهزه فرحة النصر ..

***

استيقظ هانز مبكرا فى صبيحة اليوم التالى ، ولما ترسل الشمس أشعتها على الكون . فأودع الماء المقدس قارورة متينة . واحتمل زجاجتى نبيذ ، وبضع شرائح من اللحم ، وضعها جميعا فى جعبة فوق عاتقة ، ثم مضى يتوكأ على عصا طويلة ،

ميمما شطر الجبال .

وفى طريقه بالمدينة ، مر بالسجن فعاج على نافذته يهم أن يتطلع من خلالها شامتا ، فإذا وجه أخيه شوارتز يطالعه ، من وراء قضبانها الحديدية ، بادى الكآبة ..

قال هانز :

« صباح الخير يا أخى .. أما من رسالة تحب أن أبلغها عنك للملك النهر الذهبى ؟.. » .

فعض شوارتز غضبا وحنقا على ناجذيه ، وراح يهز القضبان بكل ما فيه من قوة كأنما يريد اقتلاعها . وعندئذ ندت من هانز ضحكة شماتة ، وأهاب ساخرا بأخيه أن يوفر على نفسه قواه ، ويركن للدعة والهدوء .. ثم راح يلوح هنيهة أمام عينيه بقارورة الماء المقدس . واحتمل من بعد جعبته ، يمضى بها فى سبيله راضى النفس ، موفور النشاط ..

كان الصباح رائعا ، يملأ القلوب بهجة وإن تكن لا تنشد النهر الذهبى ، ولا تروم تحقيق تلك المعجزة التى كشف عن سرها القزم الصغير .. فوجه الأرض يكسوه بساط رمادى من الضباب ، تبرز منه شواهق الجبال .. والصخور الواطئة شهباء ، لا تكاد العين تفرق بين لونها ولون ذرات البخار العالقة بالهواء .. والسفوح تذهب رويدا رويدا عالية فى أجواز الفضاء حتى يعمها الضياء .. والشمس تغمر بنورها القمم فتصبغها بلون وردى أزهر ، ثم تنحدر عنها أشعتها متكسرة على حافات الصخر ، ممتدة بين فروع أشجار الصنوبر وأوراقها المدببة كالسهام .. ومن فوق هذا كله ، أشرفت صخرة أرجوانية عديدة الجوانب ، كأنها مجموعة من الروابى ، قد سالت عليها ، هنا وهناك ، أشعة الشمس المنعكسة عن صفحة الجليد الشفافة وهى تمتد خطوطا خيوطا وألسنة كخطف البرق متلألئة النور .. ووراء هذه الروائع جميعا ، وفى أعلى

موضع تبلغه النظرة الرانية للفضاء ، أتلعت القمم الشاهقة أجيادها ، رقيقة كسحابة صباح صائف ، صافية — بكسائها الثلجى الدائم — صفاء البلور ، وادعة راضية وقد احتوتها أحضان السماء الزرقاء ..

أما النهر الذهبى ، النابع من وهدة فى أعالى الجبال لا تتجمد مياهها ، فقد كان مجراه إذ ذاك توشك أن تغمره الظلال . لكن بقية منه ظلت وضاءة ، هى ذلك الجزء من منبعه ، الذى يتثنى ويتموج بطىء الجريان عند حافة الشلال كأنفاس دخان ، ثم يفيض ويتشعب فروعا صغارا كزغب الريش فى هبات ريح الصباح ..

إلى هذا الجانب من النهر ، وحده دون سواه ، حملقت عينا هانز لا تريمان ، وعليه استقرت خواطره لا تبرح . فمضى صوبه غير مدرك طول الشقة التى تفصله عنه ، يحث خطاه حثا عنيفا أوهن جلده ، وأودى بقواه ، وما وصل بعد إلى بدء التلال الخفيضة الخضراء .. وقد أدهشه حين تسلق التلال ، أن وجد حياله مجرى ثلجيا (ثلاجة) ، لم يكن له به علم من قبل ، على كثرة تجواله بالجبال ، ومعرفته بمواقعها المختلفة . وكان هذا المجرى يعترض الطريق إلى منبع النهر الذهبى ، ويقع عقبة فى سبيله . لكن هانز شحذ همته ، واستجمع أطراف شجاعته ، ثم سار قدما إليه عازما على اجتيازه .

ولم يكن هانز قليل الخبرة بتسلق الجبال ، ولا بعبور الثلاجات ، بل كان متمرسا بها ، يحذق التسلق والعبور . ومع ذلك فلم يمر فى حياته قط بثلاجة كهذه موفورة العقبات والأخطار .

كان ثلجها زلقا لا تكاد تثبت عليه قدم ، ذا شقوق وثغرات ينبعث منها خرير ما تحتها من الماء . لكنه خرير غير متسق ، وليس بخافت ، بل متغير الجرس صاخب ، يختلف بين لحظة وأخرى فإذا هو هدير رهيب ، أو أنات حزينة ، أو ولولة وصراخ وعويل ، كأنما تند عن أفواه بشر

تملكهم عذاب الأسى والآلام ..

وكانت القطع الثلجية تتناثر فى المكان آلافا ، مختلفة الصور والحجوم ، ثم لا تكاد تشبه فى شيء ما عرف من مثيلاتها شكلا وهيئة . فلقد كانت ذات مظهر مستغرب ، أدنى شبها إلى ملامح آدمية ، تنطق بالسخرية والاستنكار .. وإلى جوار هذا كله مئات من خطـــوط ظلال قاتمة ، وأضواء باهتة ، قد انتشرت على مرمى البصر ، تتذاءب وتضطرب فى نطاق قبة الأفق الزرقاء ، فترمش لها أهداب ذلك الرحالة وتعشى عيناه . فأما أذناه فقد أصابهما وقر ، وأما رأسه فقد ألم به الدوران ، من فرط صخب المياه الخبيئة تحت طبقة الجليد ..

هذه المتاعب عاناها هانز وهو يمضى شوطه إلى الأمام صوب غايته . وراحت الثلوج من بعدها تستجيب لوطء قدميه ، فتتكسر وتتثاءب عن شقوق جديدة . ثم تترنح القطع الجليدية وتتهاوى حواليه فى جلبة ودوى أينما سار .. وعلى كثرة ما جابه فى حياته قبل اليوم من مخاطر الثلاجات وأهوالها ، فى أقسى الأجواء ، فقد استشعر لهذه الثلاجة رهبة زلزلت قلبه رعبا وهلعا ، وانقبض لها صدره . فلما آن له فى نهاية الأمر أن يثب عبر آخر شقوق الجليد ، واستقرت قدماه منه على ناحيته المقابلة ، تنفس الصعداء ، ثم ارتمى لاهث الأنفاس ، خائر القوى ، مرتعد الأوصال ، على حافة الجبل الصلبة ..

* * *

قهره السير فوق جليد الثلاجة على أن يتخفف ، ليستطيع اجتياز عوائقها ، وعبور شقوقها وثغراتها ، فلما قطع شوطها لم يجد لديه ما يسد رمقه ، ولا ما ينقع صداه إلا الثلج طعاما وشرابا ، يأخذ القطعة منه فيمتصها بشفتيه .. وقد نفعه هذا بعض نفع ، إذ بل ظمأه وأذهب العطش عنه . ونفعه كذلك رقاده ساعة فوق حافة الجبل ، فرد عليه بعض

قوته . ثم حفزه بعد هذا جشعه فنهض يتابع رحلته الشاقة ..

ومضى الآن بسبيله ، ييمم جانبا قفرا من صخور حمراء ، لا أثر فيها لعشب يلين تحت قدميه ويمهد سيره ، ولا ركن لها يستظل به من وهج شمس الجنوب .. وكان الوقت بعيد الظهيرة ، والأشعة اللافحة تلهب الطريق المنحدر ، والهواء ساكن ثقيل تشيع فيه الحرارة ، فوهنت قواه ، وشفه ظمأ شديد أنضب ريقه ، وجفف حلقه . وعندئذ تلفت إلى قارورة الماء المقدس ، المعلقة بحزامه ، وقال فى نفسه :

« ثلاث قطرات فحسب كافية وإذن فبمقدورى أن أبلل شفتى بقليل من هذا الماء .. » .

وفض عنها غطاءها ثم رفعها إلى فمه . فما فعل حتى لمحت عينه شيئا يرقد فوق صخرة بجواره، لاح كأنما يتحرك. ودقق فيه نظره، فإذا هو جرو أضناه العطش وأشفى به على الهلاك .. كان مندلع اللسان ، جاف الشدقين، ارتخى بدنه وأعضاؤه ارتخاءة النزع ، وقد راحت جماعات من النمل الأسود تزحف على فمه وحلقه . وكانت عينه ترنو فى ذلة ولهفة إلى القارورة بيد هانز .. لكن هذا رفعها إلى شفتيه ، وجرع منها جرعات ، ثم ركل بقدمه الحيوان المسكين فى غير شفقة ، وانطلق فى سبيله .. عندئذ حدث ما لم يكن فى حسابه ، وما لم يدر له تعليلا . فقد تغشت السماء الزرقاء، على حين بغته ، سحابة من الظل عجيبة ، ألقت دكنة على المكان .

وازداد الطريق بين الخطوة والخطوة انحدارا ووعورة . وعلى الرغم من رقة هواء الجبال ونقاوته ، فلم تنتعش به نفس هانز ، ولم ينشط جسمه ، إنما كان من أثره تدفق الدم فى عروقه تدفقا عنيفا ألهب جسده بمثل لسع الحمى . أما ضجيج شلالات التلال فقد كانت له فى سمعه رنة ساخرة ، بينما بدا له هدفه بعيدا غاية البعد ، وراح الظمأ فى لحظات قلائل يحرق شفتيه ..

ومضى ساعة تلفت بعدها إلى القارورة المعلقة بحزامه . هى إلى

منتصفها فارغة ، ولكن ما فيها يزيد على تلك القطرات الثلاث . فما عليه لو فضها وجرع منها جرعات ؟ ..

وهم أن يفعل ، فإذا هو مرة أخرى يشهد شيئا على الطريق بقربه يتحرك حركة هينة ، حتى إذا تبينه ، وجده طفلا جميلا ، منطرحا فوق إحدى الصخور أدنى إلى الموت منه إلى الحياة ، مبهور الأنفاس ، يعلو صدره ويهبط من شدة عطشه ، وقد انطبق جفناه ، وذبلت شفتاه .. ولم يأبه له هانز ، بل ألقى عليه نظرة عابرة ، ثم جرع من ماء قنينته وواصل السير . وعلى الأثر حلقت فى الجو سحابة قاتمة ، نقبت وجه الشمس فأخفته وبعثت بظلالها الداكنة طويلة ملتوية كأنها الثعابين تزحف على جوانب الجبال ! ..

* * *

جهد هانز الجهد كله وهو يحث خطاه .. وكانت الشمس تميل للمغرب. لكن جنوحها للمغيب لم تقترن به نسائم المساء البليلة، بل صاحبه هواء راكد ، أثقل رأسه وقلبه ..

غير أن هدفه المرتجى قريب . فها هو النهر الذهبى . وها هو شلاله المنصب من جانب التل لا يكاد يبعد عنه بأكثر من خمسمائة قدم .. فليتريث إذن هنيهة يلقف فيها أنفاسه ، ثم ينطلق يتوثب إلى غايته ..

وانطلق. فما كاد، حتى التقط سمعه صيحة خافتة ، التفت لجرسها المباغت حواليه .. وعندئذ رأى شيخا وخط شعره المشيب ، قد استلقى خائر القوى ، على الصخور . وكان غائر العينين ، يغمر محياه شحوب كصفرة الموت ، وليس به من علائم الحياة إلا صوته الضعيف الواهن الذى هتف بنبرات يائسة خفيضة :

« شربة ماء !.. » .

ثم مد كلتا ذراعيه متوسلا إلى هانز ، معاودا ضراعته فى خفوت :

« شربة ماء !.. إننى أموت .. » .

فما كان جواب هانز إلا أن قال :

« ليس لدى ماء . وكفاك ما عشته من عمرك !.. » .

وتخطى الجسد المنطرح أمامه ، ثم مضى فى سبيله . وعندئذ لمع من جانب الأفق الشرق برق أزرق ، على هيئة سيف ، اهتز ثلاثا فى صفحة السماء ، ثم اختفى مخلفا عليها خطا عريضا كثيفا من الظل ، لا تخترقه إليها عين .

وغربت الشمس وراء الأفق كأنها كرة من نار ..

ودوى خرير مياه النهر الذهبى عاليا يصم أذنى هانز ، فوقف على حافة الأخدود الذى يجرى النهر فيه .. كانت الأمواج مصطبغة بحمرة الشمس القانية ، وقد راحت قممها تضطرب اضطراب ألسنة من اللهب ، وتلقى بوميضها الدامى على زبد الماء .. أما خريرها فقد أخذ يعلو ويعلو ، عنيفا مدويا ، يفتر حواسه وأعضاءه ، ويثقل رأسه وذهنه ، حتى أحس له فى سمعه مثل هزيم الرعود ..

ومرت بجسده رعدة ، فمد يده إلى قارورة الماء المقدس يقتلعها من حزامه ، ويقذف بها فى العباب . فما أن فعل ، حتى اعترته رجفة باردة جرت كتيار الكهرباء فى أوصاله ، وإذا هو يترنح ، ويصرخ صرخة رافعة ، يضيع جرسها فى صخب الأمواج .. ثم إذا النهر من بعد ينطلق هادرا مدويا فى ظلمة المساء ..

٤

جلس جلاك الصغير بالمنزل ، وحيدا حزينا مضطرب الخاطر ، ينتظر أخاه هانز . فلما تأخر ولم يعد ، تملك الغلام قلق ، خشية أن يكون قد أصيب بمكروه ، ومضى إلى شوارتز بدار السجن يخبره الخبر .

ولم يسؤ شوارتز ما سمعه من نبأ تخلف أخيه عن الأوبة ، بل طابت نفسه به ، وفرح أبلغ الفرح وأشده ، ثم قال فى جشع وضغينة :

« إذن فقد استحال حجرا أسود ، وبقى لى وحدى الذهب كله!.. » .

وأحزن جلاك قوله وما انطوى عليه من شماتة ، فعاد أسيفا ينفرد فى البيت بدموعه وأحزانه ..

* * *

استيقظ الفتى فى الصباح حائرا . فلا كسرة خبز لديه تسد رمقه ، ولا قطعة نقود واحدة تعينه على حاجته . ولم ير بدا من الخروج يبحث لنفسه عن عمل يقيته .

ووفق أخيرا إلى عمل بدكان صائغ ، فراح يجد كل الجد ، ويخلص فى أداء واجبه بحذق ومهارة من طلعة الشمس إلى ظلمة المساء ، حتى اكتمل له من دأبه الأيام الطوال مبلغ من المال يفى بالغرامة المفروضة على أخيه المحبوس . وعندئذ أسرع إلى السجن ، يضع المال فى يد شوارتز ، ليفدى به نفسه ..

هكذا أطلق سراح شوارتز . وهكذا غمرته الفرحة . لكنها فرحة الطمع وهو يمنى النفس بذهب النهر ، لا فرحة الخلاص والحرية ! .. فما كان ليكف عن جشعه . وما أصغى لجلاك الحزين الباكى وهو يحثه ويضرع له أن يبحث عن أخيهما المفقود .

ولقد علم شوارتز كيف سرق هانز ذلك القدر من الماء المقدس فتفكر مليا فى وسيلة سوى السرقة — لا يأباها ملك النهر الذهبى — يحصل بها على

القطرات المطلوبة. وهداه تفكيره إلى كاهن فاسد ، سيئ الخلق ، لا يراعى الله ، فلجأ إليه ، ورشاه بمبلغ من المال فى نظير كمية من الماء المقدس..

وكذلك حصل على بغيته ، فقرت عينه وتمثلت فى خاطره الثروة المنشودة بين يديه !.. فما أسفر الصبح والشمس بعد لم تشرق ، حتى نهض من فراشه يحتمل سلة بها لحم وخبز ، ويودع الماء المقدس قارورة ، ثم ينطلق صوب الجبال ..

وذهل عن نفسه ، ذهول أخيه ، حين رؤيته الثلاجة الخطرة . ولقى أعظم المشقة فى عبورها ، واجتياز عقباتها ، ولم يخفف من عنائه تخليه عن سلة طعامه ..

كانت السماء مكشوفة لا تنقب وجهها سحابة . ولكنها لم تكن رائقة مصحية . بل قد انتشر على صفحتها ضباب كثيف قرمزى يغشيها : وبدت التلال موحشة كئيبة .. وعندما بدأ شوارتز يصعد الطريق الصخرى المنحدر ، باغته عطش شديد ، كذلك الذى باغت أخاه قبله ، فمد يده إلى قارورة ليعب من مائها المقدس جرعات تطفئ ظمأه ..

لكنه ما كاد يلمس بفوهتها شفتيه ، حتى بدا له الطفل الجميل وهو راقد على الصخور خائر القوى ، يصيح به ضارعا فى أنين خافت أن يجود عليه بشربة ماء..

عندئذ هتف الشقى ساخرا :

« ماء ؟.. حقا !.. كلا . فما يبلغ ما لدى منه نصف ما يكفينى .. » .

ومضى غير آبه بالصغير .

فإن هى إلا لحظة حتى خبت أضواء الشمس ، وأقبلت غمامة سوداء من الأفق الغربى تزحف على جانب السماء .. وإن هى إلا ساعة قضاها يتسلق جاهدا حتى عاوده الظمأ ثانية ، أعتى هذه المرة وأشد . وامتدت

يده إلى القارورة .

وكرة أخرى لاح بناحية الطريق ذلك العجوز الواهن ، وانطلقت ضراعته الخفيضة يستجديه الماء .. لكن شوارتز لم يكن أرق من أخيه قلبا ، فقال :

« ماء؟.. حقا!.. كلا ، فما يبلغ ما لدى منه نصف ما يكفينى .. » .

ثم شرب ، وانطلق فى سبيله ..

فيا ويحه !.. إنه لم يكد يسير خطوة واحدة حتى أعتم الضياء فى ناظريه . وتطلع بعينه إلى الأفق ينظر ، فإذا سحابة كأنها من دم قان تحجب الشمس عنه . وإذا الغمامة السوداء تعلو فى السماء صاعدة وأطرافها ترتج وترعش ارتعاش موج صاخب ثم تلقى ظلالا كثيفة على الأرض تخفى معالم الطريق ..

* * *

ساعة أخرى تقضت عليه وهو يضرب مصعدا فى الظلمة السابغة ، لا يكاد يرى سبيله ، ولا يكف عنه إلحاح ظمئه . فلما أن جف حلقه وذوت شفتاه ، وهم أن يستعين بالقارورة ، حانت منه التفاتة شهد بها أخاه هانز ، ملقى بجانب الطريق ، مهيضا خائرا ، يحملق فيه ، ويمد نحوه ذراعيه مبتهلا أن يسعفه بشربة الماء ..

وضحك شوارتز ، وقال فى شماتة وسخرية :

« ها ها ها !.. هكذا أنت هنا !.. إذن فاذكر السجن الذى ألقونى بسببك فيه !.. أذكره يا فتاى ولا تنساه !.. ماء ؟.. ها ها ها ؟.. أتحسبنى حملته كل هذه الشقة الطويلة لتشربه ؟.. » .

وخطا فوقه لا يباليه .. فما أن فعل حتى لاح له كأنما شفتا الراقد المهيض تطوف بهما بسمة ساخرة !.. وما إن استدار يتبين سر سخريته حتى راعه أن وجده قد اختفى عن ناظريه كأنما انشقت الأرض وبلعته !..

عندئذ سيطر عليه رعب لا يدرى بواعثه . ولكنه تجلد وسعه ، ومضى قدما يدفعه طمعه ، وتلك الرغبة الجشعة فى اقتناء الذهب المنشود .. والغمامة

السوداء تعلو وتعلو حينذاك حتى تبلغ السمت. ثم تندلع منها بروق كالسهام، تطوق حوافها التى تخطف البصر ظلمة سابغة، تتموج وتنتشر مغشية رقعة السماء الفسيحة.. أما موقع الشمس فى الأفق فقد استحال مثل بحيرة من الدماء، حمراء أرجوانية.. ثم هبت من بعد، ريح عاتية هوجاء، راحت تمزق السحب القانية كسفا صغيرة تذوب فى الظلام..

وبلغ شوارتز حافة النهر الذهبى ، والأمواج فيه داكنة سوداء ، تصخب وتهدر هدير الرعود المنبعثة من الغيوم ، ويند عنها زبد كالنار .. وألقى فى عبابه العجاج بقارورة الماء المقدس ، فإذا الغيم والماء يتلاقيان ، ويطبقان عليها . وإذا علينا الشقى ترمشان من خطف البرق . وإذا الأرض تزلزل زلزالها تحت قدميه ، فتضيع صرخاته الفزعة فى طوايا الهدير ، والماء ينطلق مدويا فى ظلمة الليل ، تلطم أمواجه الصاخبة :

الحجرين الأسودين

٥

حزن جلاك أشد الحزن لغياب شوارتز . ولم يدر كيف يفعل . فما لديه مال . ولا حيلة له إلا أن يعود ثانية إلى الصائغ ، فيرهق نفسه بالعمل عنده نظير أجر ضئيل ..

وأنفذ فكرته . فلما انقضى عليه فى كفاحه المرير هذا شهران ، حزم أمره على الرحيل إلى النهر الذهبى ، لعله يصيب حظا وثروة .

قال إذ ذاك يخاطب نفسه :

« لقد توسمت فى الملك الصغير عطفا ورقة ، فلن يحيلنى إذن حجرا أسود ! .. » .

ويمم شطر كاهن البلدة ، يسأله كمية من الماء المقدس ، فلم يبخل عليه بها . وعندئذ حمل فى سلة بعض الخبز ، وقارورة الماء ، ثم انطلق مبكرا إلى الجبال .

ولئن شق على أخويه من قبله اجتياز تلك الثلاجة مرة ، فلقد شق عليه مرات ومرات ، ولقى فيه عناء ما بعده عناء ، لما كان من ضعف بنيته ، وقلة دربته على عبور مثيلاتها وتسلق المرتفعات . كان لا يكاد يسير حتى تتعثر به قدماه . وكم من جراح أصابته وكدمات . وكم بعد هذا تولاه الرعب حين ضاعت سلته ، ثم راحت الضوضاء الرهيبة تدوى هادرة تحت سطح الجليد ! ..

وبلغ فى سيره أرضا معشبة ، فارتمى فوقها يستريح . وشغله تعبه عن غايته زمنا ، فبقى راقدا حيث هو ، لا يكاد يدرى بما حوله . فلما أفاق ، واستعاد بعض نشاطه ، أخذ ثانية يواصل رحلته ، مصعدا فى التلال ، والجو حينذاك لافح الحر ، والشمس تصليه من أشعتها نارا حامية ..

وانقضت عليه ساعة أحس على أثرها بقسوة العطش تغزو حلقه ، فهم كأخويه بشرب جرعة من الماء المقدس لعلها تبل ظمأه . وعندئذ لمح شيخا واهنا ، متوكئا على عصا طويلة ، يهبط الطريق إليه ..

وخاطبه الشيخ :

« يا ولدى .. لقد أضنانى العطش ، فجد على بقليل من الماء .. » .

وتلفت جلاك صوبه ، فإذا هو خائر القوى ، فى وجهه شحوب . فرق له ، ومد يده إليه بالماء قائلا :

« اشرب يا سيدى ، وبالله لا تشربه كله ! .. » .

* * *

جرع الشيخ من القارورة جرعات أتت على ثلثى ما فيها ، ثم أعادها للفتى شاكرا ، داعيا له أن يتمهد له طريقه ، وتنشط خطاه ! ..

وقد تمهد الطريق حقا ، ونشطت الخطا ! .. فالفتى يسير فلا يلقى مشقة . والطريق تظهر به حشائش نامية ، تنتقل بينها جنادب رقيقة كالفراشات ، متواثبة على الخضرة ، فى خفة ومرح ، وهى تغرد بألحان لم يسمع جلاك من قبل مثلها رخامة وعذوبة ..

وسار ساعة أخرى عاوده العطش بعدها أشد وأعتى ، فلم ير معدى عن اللجوء ثانية لقارورته لكنه ما كاد يرفعها إلى شفتيه ، حتى رأى ذلك الطفل الجميل مطروحا بجانب الطريق ، يبكى لفرط ظمئه بكاء يفتت الأكباد .

هنا كبح الفتى جماح رغبته ، ورد القارورة عن فمه قبل أن يذوق منها قطرة ، راضيا بالعطش ، مؤثرا الطفل على نفسه . ثم أدناها منه ، فقطر بين شفتيه الرقيقتين الجافتين قطرات ، انبسطت لها أسارير الصغير ، وابتسم محياه ، وسرعان ما نهض من رقدته يعدو هابطا التل ! .. ولاحقه جلاك هنيهة ببصره ، حتى تضاءل هيكله ، ولاح كالنجمة ! .. وعندئذ استدار الفتى ، وراح يواصل صعوده راضى البال .

فسرعان ما تبدلت أمامه معالم المكان ! .. الصخور الجرداء اكتست حلة نضرة ، من زهر عطر مختلف الألوان . غدت بساطا ناعما من طحالب خضراء زاهية ، تكتنفها قرنفلات شاحبة الحمرة كأنها النجوم ، وسواسن أصفى زرقة من أديم السماء ، وزنابق ناصعة البياض صافيته ، ترق فتشف عما وراءها ! .. وراحت الفراشات ، أرجوانية وقرمزية ، تلمع فى النور وهى تتواثب خفيفة هنا وهناك .. وأخذت السماء تعكس على الأرض أضواء حانية هادئة ، فاض لها قلب الغلام بهناءة عزت عليه طوال أعوام عمره السوالف ..

وحث جلاك خطاه . فلما مضت ساعة أحس عطشا قاسيا لا يطيقه ، فرنا بنظره المستغيث إلى القارورة . وهمت يده بفض غطائها ورفعها إلى فمه ، لولا أن رأى بها بضع قطرات لا تكاد تكفى غرضه من رحلته ..

وأعادها آسفا إلى موضعها من حزامه دون أن يذوق منها قطرة .. وعلى الأثر وقع بصره على ذلك الجرو اللاهث المهيض — الذى شهده أخوه من قبل — وقد ارتمى فوق الصخور والظمأ يستنزف الحياة من بدنه ، ويشفى به على الهلاك .. ويرمق بالأخرى النهر الذهبى على مبعدة مسافة قصيرة لا تزيد على خمسمائة ياردة — فإذا هو يذكر قولة القزم الصغير له :

« .. من يفشل فى القيام بهذه المهمة مرة ، لن ينجح فيها أبدا من بعد .. » .

عندئذ حاول أن يغض عن الجرو طرفه ، وأن يواصل السير غير آبه .. لكن نباحه المسترحم الخافت قسره على التمهل ثم الوقوف ..

وهتف الفتى ، مخاطبا نفسه :

« يا للحيوان المسكين ! .. لئن تركته دون أن أسقيه فإنه هالك لا محالة .. » .

وراح يرمقه مليا وهو مشفق . وراح الحيوان يرنو إليه فى ذلة وابتهال وضراعة . فلم يملك جلاك نفسه عن القول :

« تعسا للملك ، وتعسا للذهب ! .. » .

* * *

ثم أسرع يفض عن القارورة غطاءها ، ويصب كل ما بها من الماء ، فى فم الجرو الظمآن ..

* * *

إنها لحظة — لحظة واحدة كطرفة العين ما كادت تنقضى على الجرو بعد أن ذاق قطرات الماء ، حتى انتفض من رقدته يقف على خلفيتيه .. ثم

اختفى ذيله .. ثم طالت أذناه واستحالتا مثل خيوط ناعمة من الحرير ، وأسلاك دقيقة من الذهب الأبريز .. ثم أحمر انفه واحتقن ، وتوهجت عيناه ! .. فى لحظة واحدة أصبح على غير ما كان . اختفى منه مظهر الكلب ، وغدا إنسانا يمثل أمام جلاك فى هيئة صديقه العجوز ، ملك النهر الذهبى ! ..

وقال الملك للغلام :

« شكرا .. شكرا لك .. » .

ثم تابع حديثه يطمئنه ، حين شهد فى محياه علائم الذهول الذى استولى عليه نتيجة لظهوره المباغت حياله عقب سبه إياه :

« لا تخف يا ولدى ! .. لا تخف ، فليس ثمة ما تخشاه .. » .

وعاد يخاطبه بعد قليل :

« ولم عساك لم تأت من قبل ، بدلا من إرسالك أخويك الشقيين ، وتجشيمى مشقة أحالتهما قطعتى حجارة ؟ .. إنهما لحجران صلبان غاية الصلابة ! .. » .

فأعول جلاك باكيا :

« ويلاه ! .. أتراك حقا قسوت عليهما هذه القسوة ؟ .. » .

فأجابه القزم :

« قسوة ! .. لقد صبا ماء نجسا فى مجراى ، فهل كنت تحسبنى غافرا لهما ما ارتكباه ؟ .. » .

قال جلاك فى عجب :

« ماء نجسا ؟ .. كيف ؟ .. إنى لواثق يا سيدى — أعنى ، يا صاحب الجلالة ، أنهما جاءا بذلك الماء من الكنيسة . من حوض المعمودية .. » .

فكان جواب القزم :

« يجوز .. » .

ثم صلبت ملامحه ، وقال بلهجة صارمة :

« .. لكن ماء لا يغيث ملهوفا أشرف به الوهن على الهلاك ، لهو ماء نجس لا ريب وإن باركه القديسون والملائكة فى السماء ! .. أما الماء الذى يقترن بالرحمة ، ويجود به العطف ، فهو وحده المقدس وإن لوثته الجيف ! .. » .

وانحنى فقطف من موطئ قدميه زنبقة تلألأت فوق أوراقها البيضاء ثلاث قطرات من الندى تلألأت كالدر ، أخذ ينفضها فى القارورة التى كان يمسك بها جلاك ، ثم قال :

« صب هذه القطرات فى النهر ، واتجه من بعد هابطا نحو الجانب المقابل من الجبال إلى وادى الكنوز .. وحث خطاك ! .. » .

* * *

ما نطق القزم بكلامه ذاك ، حتى استحال رداؤه إلى مثل غيمة وضاءة ، امتزجت فيها ألوانه الزاهية ، وغدت كضبابة سبح فيها هيكله ، وخفى إلا خيالا باهتا عن بصر جلاك .. وإذا هو يمثل لعينى الغلام كأنما يلفه قوس قزح عريض . ثم إذا الألوان تخبو رويدا رويدا ، وإذا الغيمة تنقشع ذاهبة فى السماء ، وإذا الملك نفسه يتوارى كأنما قد ذاب فى الهواء !..

ومضى الفتى يصعد ثانية إلى ضفة النهر الذهبى ، والأمواج عندئذ رائعة كالبلور ، مشرقة كطلعة الشمس .. فلما أن صب عليها القطرات الثلاث ، انفتحت لها من صفحة النهر ثغرة صغيرة كعين الدوامة ، احتوتها وهبطت بها إلى القاع ولها إذ ذاك وقع منغم ! ..

ووقف هنيهة يرقب ما يرى وقد خاب أمله . فما انقلب النهر ذهبا كحسبانه . بل قل ماؤه فى مجراه ، ونقص مستواه .. لكنه مع ذلك اتبع نصيحة صاحبه القزم ، وراح يهبط إلى الجانب الآخر من الجبال نحو وادى الكنوز . وكانت للنهر دمدمة فى باطن الأرض تحت قدميه ، وله خرير أينما سار . فلما أن غدا الوادى على مرمى بصره ، عجب أبلغ العجب وأشده وهو يرى ما رآه .. فلقد أخذ النهر الذهبى فى تلك الآونة ينبثق من

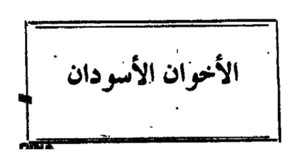
سلاسل صخرية شاهقة ، ويفيض فى مجارى مائية يجل عددها عن الحصر راحت تتدفق بين كثبان الرمال الحمراء ! .

وحدق جلاك . وأمعن النظر والعشب الأخضر يشب طالعا من سطح الأرض القاحلة على ضفاف تلك القنوات كلما انطلق فيها الماء ! .. والنبات يزحف وينمو بين التربة المبتلة .. والزهور تتفتح على حين فجأة فى الأكام على جانبى النهر كأنها الأنجم الزهر تبرز فى صفحة السماء مؤتلقة حين تبدو ظلمة الغسق عند المساء .. وشجيرات الريحان والآس تلتف وتكثف ، وأغصان الكرم تلقى ظلالا رفيعة — لا تنى تستطيل كلما طالت الفروع — على أرجاء الوادى ..

وهكذا فى لحظات ، غدا وادى الكنوز مرة أخرى ، جنة يانعة . جنة بددها الجشع والقسوة من قبل ، واستعادها الحب والرحمة الآن ! ..

* * *

ورجع جلاك إلى واديه ، يقيم فيه ، لا يرد فقيرا محتاجا عن باب داره. فامتلأت أهراؤه قمحا ، وبيته مالا . وحقت كلمة القزم له فأصبح النهر الذهبى يجرى له ذهبا وثروة .. ولا يزال سكان الوادى ، حتى اليوم ، يعرفون الموضع الذى صب فيه الفتى قطرات الندى الثلاث ، ويتعقبون من فوق الأرض مجرى النهر فى باطنها من ذلك المكان حتى يتدفق بين أرجاء وادى الكنوز .. ولا تزال ثمة على قمة الشلال ، الذى تنصب من فوقه مياه النهر الذهبى ، حجران أسودان ، يتلاطم حولهما الموج ويولول كل مغرب شمس ، وقد أطلق عليهما قاطنو الوادى اسما يجيد وصفهما ، هو :



قصص التلميذ

للاستاذ عبد الفتاح عبد المقصود

دار مصر للطباعة

الثمن ٢٥٠ مليم